الفصل الثانى عشر

النثر الجاهلى

١

صور النثر الجاهلى

حين نتحدث عن النثر الجاهلى ننحّى النثر العادىّ الذى يتخاطب به الناس فى شئون حياتهم اليومية ، فإن هذا الضرب من النثر لا يعدّ شيء منه أدباً إلا ما قد يجرى فيه من أمثال ، إنما الذى يُعَدُّ أدباً حقّاً هو النثر الذى يقصد به صاحبه إلى التأثير فى نفوس السامعين والذى يحتفل فيه من أجل ذلك بالصياغة وجمال الأداء ، وهو أنواع ، منه ما يكون قَصَصا وما يكون خطابة وما يكون رسائل أدبية محبَّرة . ويسمّى بعض الباحثين النوع الأخير باسم النثر الفنى .

وليس بين أيدينا وثائق جاهلية صحيحة تدل على أن الجاهليين عرفوا الرسائل الأدبية وتداولوها ، وليس معنى ذلك أنهم لم يعرفوا الكتابة ، فقد عرفوها ، غير أن صعوبة وسائلها جعلتهم لا يستخدمونها فى الأغراض الأدبية الشعرية والنثرية ، ومن ثَمَّ استخدموها فقط فى الأغراض السياسية والتجارية[1] . ولا ينقض ذلك ما جاء فى السيرة النبوية من أن سُوَيْد بن الصامت قدم مكة حاجّاً أو معتمراً .. فتصدّى له رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سمع به ، فدعاه إلى الله وإلى الإسلام ، فقال له سُوَيد : فلعل الذى معك مثل الذى معى ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : وما الذى معك ؟ قال : مجلّة لقمان ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : اعْرِضْها علىّ ، فعرضها عليه ، فقال له : إن هذا لكلام حسن . والذى معى أفضل من هذا : قرآن أنزله الله علىّ ، هو هُدًى ونور ، فتلا عليه رسول الله القرآن ، ودعاه إلى الإسلام فلم يَبْعُدْ منه ، وقال : إن هذا القول حسن[2] .. »

---

(١) انظر الفن ومذاهبه فى النثر العربى (الطبعة الثالثة بدار المعارف) ص ١٩ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام (طبعة الحلبى) ٢/٦٨ .

وهذا الخبر إنما يفيد أنه كان عندهم صحيفة بها بعض أمثال وحكم مما كانوا ينسبونه إلى لقمان ، ووجود مثل هذه الصحيفة لا يدل على أنهم استخدموا الكتابة فى التعبير عن وجدانهم نثراً وشعراً ، فقد كانت محدودة الانتشار بينهم ، ومن التعسف أن نزعم ذلك لمجرد الظن ، بينما تنقصنا أو تعوزنا النصوص الحسية . وإذا كنا نفتقد الأدلة المادية على وجود رسائل أدبية فى العصر الجاهلى فمن المحقق أنه وُجدت عندهم ألوان مختلفة من القصص والأمثال والخطابة وسجع الكهان . ومن المؤكد أنهم كانوا يُشْغَفون بالقصص شغفاً شديداً . وساعدتهم على ذلك أوقات فراغهم الواسعة فى الصحراء، فكانوا حين يُرْخى الليل سُدوله يجتمعون للسمر ، وما يبدأ أحدهم فى مضرب من مضارب خيامهم بقوله : كان وكان ، حتى يرهف الجميع أسماعهم إليه ، وقد يشترك بعضهم معه فى الحديث ، وشبابُ الحى وشيوخه ونساؤه وفتياته المخدرات وراء الأخبية كل هؤلاء يتابعون الحديث فى شوق ولهفة .

ومن غير شك كان يُفيض القَصَّاص على قصصه من خياله وفنه ، حتى يبهر سامعيه ، وحتى يملك عليهم قلوبهم فيحولهم من الشفقة إلى محبة الانتقام ومن الضحك إلى الجِدّ ، وعيونهم تلمع فى وجوههم السمْر وقلوبهم تخفق من آن إلى آن، وليس بين أيدينا شىء من أصول هذا القَصَص الذى كان يدور بينهم ، غير أن اللغويين والرواة فى العصر العباسى دوّنوا لنا ما انتهى إليهم منه، وطبيعى أن تتغير وتتحرّف أصوله فى أثناء هذه الرحلة الطويلة التى قطعتها من العصر الجاهلى إلى القرن الثانى الهجرى ، وإن كان من الحق أنها ظلت تحتفظ بكثير من سمات القصص القديم وظلت تنبض بروحه وحيويته .

ويمكننا بواسطة ما دوّنه العباسيون أن نعرف ألوان هذا القَصَص الذى كانوا يتناقلونه بينهم ، وربما كان أكثر هذه الألوان شيوعاً على ألسنتهم أيامهم وحروبهم وما سجّله أبطالهم فيها من انتصارات مروّعة وما مُنيت به بعض قبائلهم من هزائم منكرة، وقد ظلوا يقصُّون هذه الأيام والحروب إلى أن تناولها منهم لغويّو القرن الثانى للهجرة ورُواته، فدونوها تدويناً منظماً على نحو ما هو معروف عن أبى عبيدة فى شرحه لنقائض جرير والفرزدق ، وتوالى من بعده التأليف فيها والعناية بها على نحو ما تقدم فى غير هذا الموضع .

وكانوا يقصون كثيراً عن ملوكهم من المناذرة والغساسنة ومن سبقوهم أو عاصروهم مثل ملوك الدولة الحميرية ومثل الزبّاء ، مما نجده مبثوثاً فى تاريخ الطبرى وفى السيرة النبوية لابن هشام ، وسقط من ذلك كثير إلى أبى الفرج فى أغانيه ، ومن المحقق أن كثيرا من هذا القَصَص يخالف التاريخ الحقيقى لهؤلاء الملوك، على نحو ما هو معروف عن قصة الزباء ، فإنها لا تتفق فى شىء ووثائق التاريخ الرومانى الصحيحة[1] حتى اسمها وهو زنوبيا Zenobia حُرِّف إلى الزباء ، وربما جاء هذا التحريف من أن أباها كان يُدْعى زباى ، فنسبوها إليه وقالوا بنت زباى ، ومع مر الزمن حذفوا كلمة بنت ، وأبدلوا الياء المتطرفة بعد الألف حسب قواعدهم الصرفية همزة ، وأدخلوا على الاسم أداة التعريف فأصبحت الزباء .

وعلى نحو ما كانوا يقصّون عن ملوكهم وأبطالهم كانوا يقصّون عن ملوك الأمم من حولهم وشُجْعانهم ، يدل على ذلك ما جاء فى السيرة النبوية من أن النَّضْر بن الحارث كان من شياطين قريش وممن كان يؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويَنْصِبُ له العداوة، وكان قد قدم الحيرة وتعلم أحاديث ملوك الفرس وأحاديث رُسْتم وإسْفنديار ، فكان إذا جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلساً ، فذكّر فيه بالله ، وحذّر قومه ما أصاب من قبلهم من الأمم من نقمة الله خَلَفَه فى مجلسه إذا قام ، ثم قال : أنا والله يا معشر قريش أحسنُ حديثاً منه ، فهلم إلىّ ، فأنا أحدثكم أحسن من حديثه ، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورُسْتم وإسْفنديار[2] . . »

ومما لا ريب فيه أنهم كانوا يقصون كثيراً عن كُهّانهم وشعرائهم رسادتهم ، وهو قَصَص استمدت منه كتب التاريخ والشعر والأدب مَعِيناً لا ينضب من الأخبار ، وارجعْ إلى تراجم صاحب الأغانى فستراها تحفل بمادة غنية من القصص ، وقد بثوا فيها غير قليل من قصَصِ الهوى ، كقصة المرقّش الأكبر وصاحبته أسماء بنت عوف ، وما كان من عشقه لها وهو غلام ومحاولته خطبتها من أبيها ، واعتذار الأب له بحداثة سنه وأنه لم يُعْرَفْ بعد بشجاعة ، وما كان من انطلاق المرقّش إلى بعض الملوك ومديحه له وبقائه عنده زمناً ، وفى هذه الأثناء أصاب عَوْفاً زمان شديد ،

---

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على ٣٢١/١ (٢) السيرة النبوية (طبعة الحلبى) ٩٩/٣ وما بعدها .

فأتاه رجل من مُراد، فأرغبه فى المال، فزوجه ابنته على مائة من الإبل، ورحل بها إلى أهله. وقال إخوة المرقّش لا تخبروه بخبرها حين يرجع، بل قولوا له إنها ماتت، وذبحوا لذلك كبشاً، أكلوا لحمه ودفنوا عظامه، فلما قدم المرقش قالوا له إنها ماتت، ولم يلبث أن عرف الحقيقة بعد أن ظل مدة يعود قبر الكبش ويزوره. وخرج المرقش يطلب أسماء، وبعد مغامرات يتعرف على راعى زوجها، ويترسل إليه أن يحدثها عنه، فيقول له: إنى لا أستطيع أن أدنو منها، ولكن تأتينى جاريتها كل ليلة، فأحلب لها عَنْزاً، فتأتيها بلبنها، فقال له مرقش: خذ خاتمى هذا، فإذا حلبتَ فألقه فى اللبن، فإنها ستعرفه، وإنك مصيب بذلك خيراً لم يصبه راع قط إن أنت فعلت ذلك، فأخذ الراعى الخاتم. ولما راحت الجارية بالقدح وحلب لها العنز طرح الخاتم فيه، فانطلقت الجارية به وتركته بين يدى أسماء. فلما سكنت الرَّغْوة أخذته فشربته، وكذلك كانت تصنع، فقرع الخاتم ثَنِيَّتها، فأخذته واستضاءتْ بالنار، فعرفته، فقالت للجارية: ما هذا الخاتم؟ قالت: مالى به علم. فأرسلتها إلى مولاها وهو بنجران، فأقبل فزعاً، فقال لها: لم دعوتنى؟ قالت له: ادْعُ عبدك راعىَ غنمك، فدعاه، فقالت: سَلْه أين وجد هذا الخاتم، قال: وجدته مع رجل فى كَهْف خِبَّان، فقال لى: اطرحه فى اللبن الذى تشربه أسماء، فإنك مصيب به خيراً، وما أخبرنى مَنْ هو، ولقد تركته بآخر رمَقٍ. فقال له زوجها: وما هذا الخاتم؟ قالت: خاتم مرقّش، فأعْجِل الساعة فى طلبه. فركب فرسه وحملها على فرس آخر وسارا حتى طَرَقاه من ليلتهما، فاحتملاه إلى أهلهما، فمات عند أسماء وقال: قبل أن يموت:

سَرَى ليلا خيالٌ من سُلَيْمى ... فأَرَّقنى وأصحابى هجودُ
فبِتُّ أُدِير أمرى كلَّ حالٍ ... وأذكر أهلها وهمُ بَعيد
سكنَّ بِبلدةٍ وسكنتُ أُخرى ... وقُطِّعتِ المواثقُ والعهودُ
فما بالى أَفِى ويُخَانُ عَهْدِى ... وما بالى أُصادُ ولا أصيدُ

ثم مات فدفن فى أرض مُراد[1].

(١) أغانى (طبعة دار الكتب) ٦/١٢٩ وما بعدها.

ولم نَسُقْ هذه القصة مؤمنين بأنها نفس قصة المرقش التى دارت فى الجاهلية بلغتها وبجميع تفاصيلها ، ولكنا سقناها لندل بطوابعها على صورة أمثالها فى الجاهلية ، وما كان يتيح القَصَّاص لمثلها من عناصر التشويق، تارة بما يضيف إلى القصة من خياله،وتارة بما يضيف إليها من أشعار ، وقد يضيف إليها أمثالا ،على نحو ما نعرف فى قصة الزبّاء، وهى تتضمن عند الضَّبّى اثنى عشر مثلا[1] .

وإذا صح ما ذهب إليه بروكلمان من أن تعرف أحد العاشقين على الآخر عن طريق الخاتم شائع فى كثير من الحكايات عند أمم غير العرب[2] كان معنى ذلك أن قصص الجاهليين حتى فى الحب تسربت إليها عناصر من حكايات العشق المماثلة عند الأمم الأجنبية ، ويدخل فى هذا الجانب بعض خرافاتهم عن الحيوانات التى يلتقون فيها بخرافات الأجانب[3]، كخرافة الحية والفأس ، وقد رواها الضبى على هذه الشاكلة[4] :

« زعموا أن أخوين كانا فيما مضى فى إبل لهما ، فأجدبت بلادهما ، وكان قريباً منهما واد فيه حية، قد حمته من كل أحد ، فقال أحدهما للآخر : يا فلان لو أنى أتيت هذا الوادى المُكْلِئ ، فرعيت فيه إبلى وأصلحتها، فقال له أخوه : إنى أخاف عليك الحية ، ألا ترى أن أحداً لم يهبط ذاك الوادى إلا أهلكته ، قال : فوالله لأهبطنّ . فهبط ذلك الوادى ، فرعا إبله به زماناً ، ثم إن الحية لدغته ، فقتلته . فقال أخوه : ما فى الحياة بعد أخى خير ، ولأطلبن الحية فأقتلها أو لأتبعنّ أخى . فهبط ذلك الوادى ، فطلب الحية ليقتلها ، فقالت : ألست ترى أنى قتلت أخاك ، فهل لك فى الصلح ، فأدعك بهذا الوادى ، فتكون به ، وأعطيك ما بقيتَ ديناراً فى كل يوم . قال : أفاعلة أنتِ ؟ قالت : نعم ، قال : فإنى أفعل . فحلف لها وأعطاها المواثيق ، لا يضيرها . وجعلت تعطيه كل يوم ديناراً ، فكثر ماله ونمت إبله ، حتى كان من أحسن الناس حالا . ثم إنه ذكر أخاه ، فقال : كيف ينفعنى العيش ، وأنا أنظر إلى قاتل أخى فلان ؟ . فعمد إلى فأس ، فأحدّها ، ثم قعد لها ، فمرت به ، فتبعها ، فضربها فأخطأها ، ودخلت الجحر ،

---

(١) أمثال العرب للمفضل الضبى (الطبعة الأولى بالقاهرة) ص ٨١ وما بعدها .

(٢) انظر تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ١/١٠٢.

(٣) انظر كتاب الأمثال فى النثر العربى القديم لعبد المجيد عابدين ص ٤٢ .

(٤) أمثال العرب للضبى ص ١٠٦ .

فرمى الفأس بالجبل فوقع فوق جُحْرها، فأثّر فيه . فلما رأت ما فعل قطعت عنه الدينار الذى كانت تعطيه ، ولما رأى ذلك تخوّف شرها وندم ، فقال لها : هل لك فى أن نتواثق (نتعاهد) ونعود إلى ما كنا عليه ، فقالت : كيف أعاهدك ؟ وهذا أثر فأسك وأنت فاجر ، لا تبالى العهد . فكان حديث الحية والفأس مثلا مشهوراً من أمثال العرب ، قال نابغة بنى ذبيان (من قصيدة يعاتب بها بنى مرة) :

وإنى لألْقى من ذوى الضِّغْن منهمُ بلا عَثْرة ، والنفس لا بُدَّ عَاثِره
كما لقيتْ ذاتُ الصَّفَا من حليفها وما انفكّتِ الأمثالُ فى الناس سَائره

ويُنْشِدُ الضبى بقية القطعة التى يتحدث فيها النابغة عن قصة الحية مع هذا الراعى الذى اختان عهده . ونحن نشك فى الأبيات كما نشك فى أن القصة حافظت على الأصل الجاهلى، وإن كنا فى الوقت نفسه نظن ظنّاً أنها تعطينا جانباً من روح القصص الجاهلى ، وأنه كان يلتقى فى بعض جوانبه بقصص الحيوان المعروف عند الهنود، والذى تسرب منهم إلى الأمم الأخرى على نحو ما نعرف فى قصص إيسوب اليونانى، وبين قصصه الزارع والحية[1] ، وكأنما تسرب هذا النوع من الهند إلى العرب واليونان جميعاً .

ومما لا شك فيه أن عرب الجاهلية قَصّوا كثيراً عن الجن والعفاريت والشياطين ، وقد زعموا أنها تتحوّل فى أى صورة شاءت إلا الغول فإنها دائماً تبدو فى صورة امرأة عَدا رجليها ، فلا بد أن تكونا رجلى حمار . وكثيراً ما تتراءى الجن فى صورة الثيران والكلاب والنعام والنسور . وكانوا يزعمون أن أهم منازلها أرض وبار وصحراء الدهناء ويَبْرين . ومن غير شك دخل كثير من قصصهم عنها فى كتب الأساطير والعجائب التى ألفت فى العصر العباسى .

ونحن لم نسق ذلك لنؤكد أنه بقيت لنا من القصص الجاهلى بقية صالحة للدراسة ، فإن شيئا من هذا القصص الذى يضاف إلى الجاهليين لم يصلنا مدوناً مكتوباً ، ولذلك كنا نتهمه جملة، وإن كنا بعد هذا الاتهام نعود فنزعم أنه يصور لنا مادة قصصهم وروحه وطبيعته وكثيراً من ملامحه ، ولكن لا بصورة دقيقة ، وإنما بصورة عامة .

---

(١) انظر الأمثال فى النثر العربى القديم ص٤٣ .

٢

الأمثال

إذا كان القصص الذى أضيف إلى الجاهليين لا يحمل لنا صورة دقيقة للنثر الجاهلى بحكم تأخره فى التدوين فإن الأمثال تحمل لنا غير قليل من هذه الصورة ، إذ أن من شأنها أن لا تغيّر ، وأن تظل طويلا بصورتها الأصلية، بحكم إيجازها وكثرة دورانها على الألسنة . وقد سارع العرب إلى تدوينها منذ أواسط القرن الأول للهجرة،إذ ألف فيها صُحار العَبْدى أحد النسابين فى أيام معاوية بن أبى سفيان (٤١–٦٠ هـ) كتاباً كما ألف فيها عُبيد بن شَرِيَّة معاصره كتابًا آخر،ويقول صاحب الفهرست إنه رآه فى نحو خمسين ورقة[1] . وإذا انتقلنا إلى القرن الثانى وجدنا التأليف فى الأمثال يكثر ، إذ أخذ علماء الكوفة والبصرة جميعًا يهتمون بها ويؤلفون فيها ، وقد وصلنا عن هذا القرن كتاب أمثال العرب للمفضل الضبى ، وتمضى إلى القرن الثالث ، فيؤلف أبو عبيد القاسم بن سلام فيها كتابًا يشرحه من بعده أبو عُبيد البكرى باسم « فصل المقال فى شرح كتاب الأمثال لأبى عبيد القاسم بن سلام » . وما تزال المؤلفات فى الأمثال تتوالى ، حتى يؤلف أبو هلال العسكرى كتابه « جمهرة الأمثال » ويخلفه الميدانى ، فيؤلف كتابه « مجمع الأمثال » وهو يقول فى مقدمته إنه رجع فيه إلى ما يربو على خمسين كتابًا .

ومن يرجع إلى هذه الكتب يجدهم يسوقون الكلمة السائرة التى تسمى مثلا ، ولا يكتفون بذلك ، بل يقفون غالبًا لسرد القصة أو الأسطورة التى تمخض عنها المثل، وقد تتمخضُ عن أمثال أخرى فتُرْوى فى تضاعيفها . وموقفنا من هذه الأقاصيص والأساطير لا يختلف عن موقفنا من القصص الجاهلى بعامة ، فنحن لا نتخذ منها صورة للنثر الجاهلى وإن اختلجت بروحه وطبيعته وحيويته ، لنفس السبب الذى ذكرناه ، وهو تأخر تدوينها . أما الأمثال نفسها فمن المحقق أن طائفة كبيرة مما روته الكتب السالفة يتحتم أن تكون جاهلية، وخاصة أكثر ما رواه عُبيد ابن شَرِيَّة، ولو أن كتابه لم يسقط من يد الزمن ووصلنا لاطمأننا إلى ما يرويه

(١) الفهرست ص ١٣٢ .

من هذه الأمثال ، غير أنه فُقد . ولم يحاول من جاءوا بعده أن يفردوا الأمثال الجاهلية من الإسلامية ، إذ دَرَج أكثرهم على ترتيب الأمثال حسب الحروف الاولى على نحو ما ترتّب المعاجم ألفاظها ، فهم يرتبونها أو يؤلفونها فى تسعة وعشرين باباً بعدد أبواب الحروف الهجائية . وبذلك أصبح من الصعب تمييز جاهليها من إسلاميها فى كثير من الأحيان ، ومع ذلك قد يورد أصحاب هذه الكتب مع ما يروونه من الأمثال إشارات تدل على جاهليتها وقدمها ، وهى تتخذ عندهم طريقين : الطريق الأول أن يسوقوا مع المثل قصة جاهلية تفسره ، أو أن يساق هو فى أثناء قصة جاهلية ، كتلك الأمثال التى نقرؤها فى قصة الزبّاء من مثل : « لايطاع لقصير أمرٌ » و« لأمرٍ ما جَدَعَ قصيرٌ أنفه » و« بيدى لا بيد عمرو » وقد بلغت أمثال هذه القصة عند الميدانى ثمانية عشر مثلا . ومن هذا الطريق ما يتصل بأحداث أو أساطير جاهلية كالذى زعموا أن النعمان بن امرئ القيس اللخمى ابتنى قصراً له يسمى الخَوَرْنق ، بناه له رومى يسمى سِنِمّار ، فلما أتمه قال له سنمار : إنى أعرف موضع آجرّة لو زالت لسقط القصر كله ، فقال له النعمان : أيعرفها أحد غيرك ؟ فقال : لا ، فقال : لا جرم لأدَعَنّها وما يعرفها أحد ، ثم أمر به فرُمى من أعلى القصر إلى أسفله فتقطع ، فضرب به الجاهليون المثل فقالوا : جزاء سِنِمّار .

وأما الطريق الثانى فهو أن ينسبوا المثل إلى جاهليين ، فحينئذ يتعين زمنه وتاريخه ، وهناك كثيرون اشتهروا فيهم بالحكمة والأمثال السائرة ، ومنهم من يُغْرق فى القدم مثل لُقْمان عاد ، تلك القبيلة اليمنية التى كانت تنزل فى الأحقاف ، والتى بادت ولم تبق منها باقية فى الجاهلية ، وقد ظل اسم لقمان يدور على ألسنة شعرائهم[1] وظلوا يذكرونه بالحكمة والبيان والحلم . يقول الجاحظ : « من القدماء ممن كان يُذْكَرُ بالقدر والرياسة والبيان والخطابة والحكمة والدهاء والنُّكْراء لقمان عاد » وينص على أنه غير لقمان الحكيم المذكور فى القرآن الكريم[2] كما ينص على ذلك المفسرون[3] . ولقدم لقمان حفّت الأسطورة به وبحياته وكل ما يتصل بصلاته مع الناس والنساء . فقال الأخباريون إنه كان عملاقاً كبير الرأس قوياً قوة

(١) البيان والتبيين ١/١٨٣ وما بعدها و ٣/٣٠٤ .
(٢) البيان والتبيين ١/١٨٤ .
(٣) قصص الأنبياء للثعلبى (طبعة القاهرة) ٣٤٠ وتفسير أبى حيان ٧/١٨٦ وانظر خزانة الأدب للبغدادى ٢/٧٧ .

خارقة حكيما حكمة بالغة، وقالوا إنه عاش عمر سبعة نسور وأن كل نسر منها عاش ثمانين سنة وكان لُبَد آخرها، وبه ضربوا المثل فى طول العمر فقالوا « طال الأبد على لبد »[١] . ونُسبت إلى لقمان فى عصور متأخرة طائفة من الأقاصيص أريد بها إلى العظة والاعتبار ، وسميت أمثال لقمان ، وهى مكتوبة بأسلوب ركيك ضعيف . وقد زعم هلر « Heller» كاتب مادة لقمان فى دائرة المعارف الإسلامية أن شخصية لقمان مرت بثلاث مراحل : (ا) مرحلة جاهلية وفيها يتراءى لقمان عاد الأسطورى الذى يقال إنه عاش عمر سبعة نسور وكلما هلك منها نسر خلفه نسر آخر ، حتى كان لُبَد الذى ذكره شعراؤهم كثيراً . (ب) مرحلة قرآنية، وفيها نجد للقمان سورة خاصة به فى الذكر الحكيم وقد ربط بعض المفسرين بين لقمان هذا وبين بلعام حكيم بنى إسرائيل فسردوا له نفس نسبه إذ قالوا إنه لقمان بن باعور[٢] بن ناحور ابن تارخ . (ج) مرحلة متأخرة، وهى مرحلة نُسج فيها ولفق قصص كثير حول لقمان كما يصور ذلك كتاب « أمثال لقمان » .

ومن المحقق أن« هلر » مخطئ فيما ذهب إليه من هذا التطور لشخصية لقمان ، لسبب بسيط ، وهو ما قلناه من أن قدماءنا فرّقوا بين لقمان عاد ولقمان القرآن الكريم ، فهما ليسا شخصا واحداً بل هما شخصان . وبينما تُعنى بالأول كتب الأمثال نجد الثانى تُعنى به وبوصاياه كتب الفقه والتفسير مثل موطأ مالك وتفسير أبى حيان ، وقد روى الجاحظ طرفاً من تعاليمه ، وهى تُطْبَعُ بطابع دينى[٣] .

واشتهر فى الجاهلية بينهم كثيرون بهذا اللون من الأمثال وما يتصل بها من حكم ، يقول الجاحظ : « ومن الخطباء البلغاء والحكام الرؤساء أكثم بن صَيْفى وربيعة بن حُذار وهرم بن قُطْبة وعامر بن الظَّرِب ولَبِيد بن ربيعة»[٤] وأحكمهم أكثم بن صيفى التميمى وعامر بن الظَّرِب العدْوانى ، فأما أكثم فكان من المعمَّرين[٥] ،

(١) انظر المعمرين للسجستانى ص ٣ وأخبار عبيد بن شرية ص ٣٥٦ والخزانة ٢/٧٧ والميدانى ١/٣٧٥ .

(٢) انظر الثعلبى ٣٤٠ وتفسير أبى حيان ٧/١٨٦ .

(٣) البيان والتبيين ٢/١٤٩ .

(٤) البيان والتبيين ١/٣٦٥ .

(٥) انظر فى أكثم المعمرين للسجستانى ص ١٠ والأغانى (طبعة الساسى) ١٥/٧٠ ومجمع الأمثال ٢/١٤٥ وجمهرة الأمثال للعسكرى على هامشه ١/١٢٠ .

ويقال إنه لحق الإسلام وحاول أن يعلن إسلامه فركب متوجهاً إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، غير أنه مات فى الطريق . وتدور على لسانه حكم وأمثال كثيرة ، وقد ساق السيوطى فى المزهر طائفة منها نقلا عن ابن دريد فى أماليه ، وهى تجرى على هذا النسق[١] :

« رُبَّ عُجلة تهب ريثا[٢] . ادَّرِعوا الليل فإن الليل أخفَى للوَيْل . المرء يعجز لا محالة . لا جماعة لمن اختلف . لكل امرئ سلطانٌ على أخيه حتى يأخذ السلاح ، فإنه كفى بالمشرفية واعظاً . أسرع العقوبات عقوبة البغْى . شر النُّصْرة التعدِّى . آلم الأخلاق أضيقها . أسوأ الآداب سرعة العقاب . رُبَّ قول أنفذ من صَوْل[٣] . الحرُّ حُرٌّ وإن مسَّه الضر . العبد عبد وإن ساعده الجدّ[٤] . إذا فزع الفؤاد ذهب الرقاد . رُبَّ كلام ليس فيه اكتتام . حافظ على الصديق ولو فى الحريق . ليس من العدل سرعة العذل . ليس بيسير تقويم العسير . إذا بالغت فى النصيحة هجمتْ بك على الفضيحة . لو أنصف المظلوم لم يبق فينا ملُوم . قد يبلغ الخَضْمُ بالقَضْم[٥] . استأن أخاك فإن مع اليوم غدا . كل ذات بَعْل ستَئيم[٦] . الحرَ عزوف . لا تطمع فى كل ما تسمع » .

وعامر مثل أكثم يدخل فى المعمرين[٧] ، ويقال إنه « لما أسنّ واعتراه النسيان أمر ابنته أن تَقْرَع بالعصا إذا هو فهَّ[٨] عن الحكم وجارَ عن القصد . وكانت من حكيمات العرب حتى جاوزت فى ذلك مقدار صُحَر بنت لقمان وهند بنت الخُسّ وجمعة بنت حابس . . وقال المتلمس فى ذلك :

لذى الحِلم قبل اليوم ما تُقْرَعُ العَصَا وما عُلِّم الإنسانُ إلا ليعلما[٩] »

وكان مثل أكثم حكماً للعرب تحتكم إليه ، وافتخر بذلك ذو الإصبع العَدْوانى فى بعض شعره فقال[١٠] :

---

(١) المزهر للسيوطى (طبعة الحلبى) ١/١

(٢) الريث : البطء أى رب عجلة تفوّت على صاحبها حاجته

(٣) الصول : الاستطالة فى الحرب .

(٤) الجد : الحظ .

(٥) الخضم : الأكل ملء الفم . القضم : الأكل بأطراف الأسنان .

(٦) تئيم : يهلك عنها الزوج .

(٧) انظر المعمرين ص ٤٤ وأمثال الميدانى فى المثل : إن العصا قرعت لذى الحلم .

(٨) فه : حاد وجار وانحرف .

(٩) البيان والتبيين ٣/٣٨ .

(١٠) الأغانى (طبعة دار الكتب) ٣/٩٠ .

ومنا حَكَمٌ يَقْضِى فلا يُنْقَضُ ما يقْضِى

وتنسب إليه حكم ووصايا كثيرة لقومه[١] .

وأكثر حكمهم وأمثالهم لا يعيِّنون قائلها ، وهذا طبيعى لأنها تنبعث غالباً من أناس مجهولين من عامة القبائل، ممن لا يمجَّدون ولا يحفل بهم الناس، وهم أيضاً لا يحفلون بأنفسهم لأنهم من العامة ، والعامة عادة لا يهتمون بنسبة فضل إليهم . ولا بد أن نلاحظ أن بعض أمثالهم يخفى المعنى المراد منه . ومن أجل ذلك كان لا يفهم إلا بالرجوع إلى كتب الأمثال، كقولهم : « بِعَيْنٍ ما أرينَك » فإن معناه : أسرعْ ، وهو معنى لا يتبادر إلى السامع من ظاهر اللفظ ، ومن ثم علّق عليه أبو هلال العسكرى بقوله : « هو من الكلام الذى قد عُرف معناه سماعاً من غير أن يدل عليه لفظه[٢] » . ولا بد أن نلاحظ أيضاً أن الأمثال لا تتغير ، فتقول : « الصيف ضَيَّعتِ اللبن »[٣] بكسر التاء إذا خاطبت الواحد والواحدة والاثنين والاثنتين والجماعة . ومن ثم كانوا يستجيزون فى المثل مخالفة النحو وقواعد التصريف والجمع ، . فى أمثالهم : « أعط القوسَ باريها[٤] » بتسكين الياء فى باريها والقياس فتحها ، وفيها أيضا : « أجناؤها أبناؤها » جمع جان وبان ، والقياس : « جُناتها بُناتها » لأن فاعلا لا يجمع على أفعال .

وإذا كانت بعض الأمثال تخالف نظام التصريف والنحو فإن الكثرة الكثيرة لا تشذ على هذا النظام ، بل إن طائفة منها تدخل فى الصياغة الجاهلية البليغة ، إذ نطق بها بعض بلغائهم وفصحائهم من أمثال أكثم بن صَيْفى وعامر بن الظَّرب ، وكان خطباؤهم المفوَّهون كثيراً ما يعمدون إلى حشْدها فى خطابهم ، يقول الجاحظ : « كان الرجل من العرب يقف الموقف فيرسل عدة أمثال سائرة ، ولم يكن الناس جميعاً ليتمثَّلوا بها إلا لما فيها من المرفق والانتفاع[٥] » وتبع شعراؤهم خطباءَهم يودعونها أشعارهم. ومن ثَمَّ كنا نجد كثيراً منها يتم له لحنه الموسيقى ، فإذا هو شطر

---

(١) البيان والتبيين ١/٤٠١، ٢/١٩٩ .

(٢) جمهرة الأمثال للعسكرى على هامش مجمع الأمثال للميدانى ١/١٦٨ .

(٣) يضرب هذا المثل لمن يطلب حاجته بعد فوت أوانها .

(٤) أى استعن على ما تعمل بأهل الحذق والمهارة .

(٥) البيان والتبيين ١/٢٧١ .

أو بيت . وكثيراً ما نلاحظ فى بعض عباراتها احتفالا بتوازن الكلمات توازناً ينتهى بها إلى السجع كما نلاحظ فى بعض جوانبها اهتماماً بالتصوير ، ومن أجل ذلك يقول النَّظَّام إنها « نهاية البلاغة لما تشتمل عليه من حسن التشبيه وجودة الكناية[1] »

واقرأ هذه الأمثال :

تجوع الحُرَّة ولا تأكل بثَدْيَيْها[2] — المقدرة تُذْهب الحفيظة — مقتل الرجل بين فكَّيه[3] — إنما المرءُ بأصغريه : قلبه ولسانه — من استرعى الذئبَ ظلم — فى الجريرة تشترك العشيرة[4] — وقد يأتيك بالأخبار من لم تزوِّد[5] — كذى العُرِّ يُكْوَى غيره وهو راتع[6] — استَنْوَق الجمل[7] — كالمستجير من الرَّمضاء بالنار[8] — حلَبَ الدَّهرَ اشْطُرَه[9] — يَخْبِط خَبْطَ عَشْواء[10] — المنيَّة ولا الدنيَّة[11] — تحت الرَّغوة اللبَن الصَّريح[12] — هُدْنَةٌ على دُخَن[13] — رمتْنى بدائها وانسلَّتْ .

فإنك تحس جمال الصياغة وأن صاحب المثل قد يعمد إلى ضرب من التنغيم الموسيقى للفظه ، فإذا هو يسجع فيه أو إذا هو ينظمه شطراً من بيت . وقد يعمد إلى ضرب من الأخيلة ، ليجسِّم المعنى ويزيده حدة وقوة . والحق أن كل شىء يؤكد أن العرب فى الجاهلية عُنوا بمنطقهم واستظهار ضروب من الجمال فيه ، سواء ضربوا أمثالهم أو تحدثوا أو خطبوا ، وقد وصفهم جلَّ وعز أو وصف فريقاً منهم بقوله : « ولتعرفنَّهم فى لَحْنِ القول » وقوله : « ومن الناس مَن يُعْجِبك قوله فى الحياة الدنيا » . وكأنما أصبحت المقدرة البيانية عندهم سليقة من سلائقهم ، ولذلك لم يكن عجباً أن تكون آية الرسول صلى الله عليه وسلم على صدق رسالته معجزةً بلاغية لا يستطيعون أن يجاروها هى القرآن الكريم . « وإنه لكتابٌ عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » .

---

(١) مجمع الأمثال ١/٥ .
(٢) يضرب فى صيانة الرجل الكريم نفسه عن المكاسب الخسيسة .
(٣) بين فكيه : أى لسانه وما يتكلم به .
(٤) الجريرة : الجناية .
(٥) شطر بيت لطرفة .
(٦) شطر بيت للنابغة .
(٧) استنوق : أصبح ناقة . يضرب مثلا لمن يظهر أن عنده رأياً ثم يتضح عجزه .
(٨) الرمضاء : الأرض شديدة الحرارة .
(٩) أشطره : الأشطر : أخلاف الناقة ، يضرب مثلا لمن عرك الدهر .
(١٠) العشواء : الناقة ضعيفة البصر ، يضرب مثلا فى التعثر .
(١١) الدنية : العمل الدنىء .
(١٢) الصريح : الخالص .
(١٣) دخن : حقد .

٣

الخطابة

ليس بين أيدينا نصوص وثيقة من الخطابة الجاهلية ، لما قلناه من بعد المسافة بين العصر الذى قيلتْ فيه وعصور تدوينها ، ولذلك كان ينبغى أن نحترس مما رواه منها صاحب الأمالى وصاحب العقد الفريد ، فأكثره أو جمهوره منحول . على أن اتهامنا لنصوصها لا ينتهى بنا إلى إنكارها على الجاهليين ، بل إنه لا ينتهى بنا إلى إنكار ازدهارها كما حاول بعض الباحثين[1] ، فقد كان كل شىء عندهم يؤهل لهذا الازدهار ، إذ لم يكن ينقصهم شىء من الحرية ، وكثرت المنازعات والخصومات بينهم والدعوة إلى الحرب مرة وإلى السلم مرة أخرى . وقد اتخذوا من مجالسهم فى مضارب خيامهم ومن أسواقهم ومن ساحات الأمراء ووفاداتهم عليهم ميادين لإظهار براعتهم وتفننهم فى المقال وحَوْك الكلام ، وأسعفتهم فى ذلك ملكاتهم البيانية وما فُطروا عليه من خلابة ولَسَن وبيان وفصاحة وحضور بديهة ، حتى ليقول الجاحظ : « وكل شىء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال ، وكأنه إلهام ، وليست هناك معاناة ولا مكابدة ولا إجالة فكرة ولا استعانة ، وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام . . عند المقارعة أو المناقلة أو عند صراع أو فى حرب ، فما هو إلا أن يصرف وهمه إلى جملة المذهب وإلى العمود الذى إليه يقصد ، فتأتيه المعانى أرسالا (أفواجاً) وتنثال عليه الألفاظ انثيالا . . وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر ، وهم عليه أقدر ، وله أقهر ، وكل واحد فى نفسه أنطق ومكانه من البيان أرفع ، وخطباؤهم للكلام أوجد ، والكلام عليهم أسهل ، وهو عليهم أيسر . . من غير تكلف ولا قصد ولا تحفظ ولا طلب[2] » .

وكل ذلك عمل على ازدهار الخطابة فى الجاهلية ، وأن تتناول أغراضاً مختلفة ، فقد استخدموها فى منافراتهم ومفاخراتهم بالأحساب والأنساب والمآثر والمناقب ، كمنافرة علقمة بن عُلاثة وعامر بن الطفيل إلى هَرِم بن قُطْبة الفَزارى[3] ومنافرة

(١) فى الأدب الجاهلى لطه حسين ص ٣٧٤ .
(٢) البيان والتبيين ٣/٢٨ .
(٣) أغانى (ساسى) ١٥/٥١ .

القعقاع بن معبد التميمي وخالد بن مالك النهشلي إلى ربيعة بن حـُذار الأسَدى[١] .
واستخدموها فى الحض على القتال وبعث الموجدة فى نفوس قبائلهم ودفعها إلى نيران الحرب وترامیهم فى أوارها كأنهم الفراش ، يقول أبو زُبَيْد الطائى[٢] :

وخطيبٍ إذا تمعَّرتِ الأَوْ جهُ يوماً فى مأقِطِ مشهودِ[٣]

ويقول عامر المحاربى فى مديح قومه[٤] :

وهم يَدْعَمُونَ القولَ فى كل موطنٍ بكل خطيبٍ يترك القوم كُظَّما[٥]
يقوم فلا يَعْيا الكلامَ خطيبُنا إذا الكربُ أَنْسى الجِبْسَ أن يتكلما[٦]

وكما كان يدعو خطباؤهم إلى الحرب وسفك الدماء كانوا يدعون إلى الصلح وإصلاح ذات البَيْن وأن تضع الحرب أوزارها ، يقول ربيعة بن مقروم الضبى[٧] :

ومتى تَقُمْ عند اجتماع عشيرةٍ خطباؤنا بين العشيرة يُفْصَلِ

وكانوا كثيراً ما يخطبون فى وفادتهم على الأمراء، إذ يقف رئيس الوفد بين يدى الأمير من الغساسنة أو المناذرة ، فيحييه ، متحدثاً بلسان قومه ، وفى السيرة النبوية ما يصور جانباً من هذه الوفود ، إذ وفد كثير منها على الرسول منذ السنة الثامنة، وكان يقوم خطيب الوفد بين يديه متحدثاً ، ويرد عليه خطيب الرسول على نحو ما هو معروف عن وفد تميم وخـُطْبة عـُطارد بن حاجب بن زُرارة بين يديه[٨] . وكان ذلك سنة شائعة بينهم فى الجاهلية حين يفدون على الأمراء أو على من له رياسة وسيادة . يقول أوس بن حجر فى رثاء فضالة بن كـَلـَدة[٩] :

أبا دُلَيْجَةَ مَنْ يكْفى العشيرةَ إذ أمسوا من الخَطْبِ فى نارٍ وبَلْبالِ
أم من يكون خطيبَ القوم إذ حَفَلوا لدى الملوك ذوى أَيْدٍ وأَفْضالِ[١٠]

---

(١) البيان والتبيين ٢/٢٧٢ .
(٢) البيان والتبيين ١/١٧٦ .
(٣) تمعرت الوجوه : تغيرت واصفرت .
المأقط : موضع القتال .
(٤) المفضليات ، القصيدة ٩١ .
(٥) كظماً : جمع كاظم وهو الساكت غيظاً .
(٦) الجبس : اللئيم المنقطع .
(٧) أغانى (ساسى) ٩/٩٣١ .
(٨) تاريخ الطبرى، القسم الأول ص١٧١١ والأغانى (طبعة دار الكتب) ٤/١٤٦ .
(٩) نقد الشعر لقدامة (طبعة الجوائب) ص ٣٥ وديوان أوس (طبعة بيروت) ص ١٠٣
(١٠) أيد : قوة .

وقد يَنْبرون فى الأسواق العظام ينصحون قومهم ويرشدونهم، على نحو ما هو معروف عن قُسٍّ وخطبته بسوق عكاظ ، وربما نصح الخطيب عشيرته وقومه الأقربين ، كبعض ما يُرْوَى عن عامر بن الظَّرِب وأكثم بن صيفى . وكان من عادتهم فى الزواج ، وخاصة زواج أشرافهم وأبنائهم أن يتقدم عن الخاطب سيد من عشيرته ، يخطب باسمه الفتاة التى يريد الاقتران بها ، وخطْبة أبى طالب السيدة خديجة للرسول صلى الله عليه وسلم مشهورة ، ويقول الجاحظ : « كانت خطبة قريش فى الجاهلية — يعنى خطبة النساء — : باسمك اللهم ذُكرتْ فلانة، وفلان بها مشغوف ، باسمك اللهم ، لك ما سألت ، ولنا ما أعطيت »[1] . ويقول كان من عادة العرب فى هذه الخطبة أن يطيل الخاطب ويقصِّر المجيب[2] ، ويتحدث عن خطابتهم عامة فيقول : « اعلم أن جميع خطب العرب من أهل المَدَر والوَبَر والبدو والحضر على ضربين منها الطوال ، ومنها القصار ، ولكل ذلك مكانٌ يليق به وموضع يحسن فيه . ومن الطوال ما يكون مستوياً فى الجودة ، ومتشاكلا فى استواء الصنعة ، ومنها ذوات الفقَر الحسان والنُّتف الجياد . . ووجدنا عددَ القصار أكثر ورواةَ العلم إلى حفظها أسرع[3] » .

وليس كل ما يدل على ازدهار الخطابة فى الجاهلية ما رأيناه آنفاً من تعدد أنواعها وخوْضها فى أغراض مختلفة من المصاهرة أو الوفادة على الأمراء أو النصح والإرشاد أو الدعوة إلى الحرب أو الكفِّ عن القتال أو فى المنافرات والمفاخرات ، فقد استقر فى نفوس العباسيين وعلى رأسهم الجاحظ أنهم كانوا يكثرون من الخطب وأن قبيلة من القبائل بل عشيرة من العشائر لم تكن تخلو من خطيب ، وهو يسوق فى البيان والتبيين أثباتاً طويلة بأسمائهم ومواقفهم مُوردةً من حين إلى حين فقراً وشظايا من أقوالهم . ولعل من الخير أن نعرض أطرافاً من ذلك ، حتى تتضح لنا هذه النهضة الخطابية عندهم من بعض وجوهها ، وخاصة أننا لا نطمئن إلى ما يروى لهم فى كتب الأدب والتاريخ من خطب، ومن ثَمَّ سنعمد عمداً إلى سرد أسماء خطبائهم من جهة وإنشاد بعض الأشعار التى تصور بيانهم وبراعتهم فى هذا اللون من ألوان نثرهم ، لما هو معروف من أن الشعر يمكن أن ينقل عن طريق الرواية آماداً من الأزمنة بفضل ما فيه من موسيقى تحفظه من الاضطراب على ألسنة الرواة

---

(١) البيان والتبيين ١/٤٠٨ .
(٢) البيان والتبيين ١/١١٦ .
(٣) البيان والتبيين ٢/٧ .

وتحولُ بينه وبين دخول خلل واسع فى صُورَه الأصلية .

وإذا رجعنا نستعرض أسماء خطبائهم وجدنا البيان والتبيين يموج بهم ، من مثل قيس بن شمَّاس فى يثرب ، وابنه ثابت وهو خطيب النبي صلى الله عليه وسلم . ومن خطباء الأنصار أيضاً سعد بن الربيع ، وهو الذى اعترضت ابنتُه النبيَّ صلى الله عليه وسلم ، فقال لها : من أنت ؟ قالت : ابنة الخطيب النقيب الشهيد سعد ابن الربيع [١] . أما مكة فمن قدماء خطبائها هاشم وأمية ونُفَيْل بن عبد العزى جد عمر بن الخطاب ، وإليه تنافر عبد المطلب بن هاشم وحرب بن أمية [٢] . ويظهر أنه كان فيها خطباء كثيرون ، وربما كان مما هيأ لكثرتهم وجود دار الندوة بها ، وهى تشبه مجلس شيوخ مصغراً ، كانوا يجتمعون فيها ويخطبون ويتحاورون [٣] ، وممن عُرف فيها بالخطابة عُتْبة بن ربيعة وسُهَيل بن عمرو الأعلم ، وهو الذى قال فيه عمر للرسول صلى الله عليه وسلم : « يا رسول الله ! انزع ثَنِيَّتَيْه [٤] السُّفليين حتى يُدْلع [٥] لسانه فلا يقوم عليك خطيباً أبداً » فقال الرسول عليه السلام : « لا أمثِّل فيمثل الله بى ، وإن كنت نبيًّا ، دعه يا عمر ، فعسى أن يقوم مقاماً تحمده [٦] »

وممن اشتهروا بالخطابة فى القبائل عامر بن الظَّرِب فى عَدوان وربيعة [٧] بن حُذار فى أسَد وحنظلة بن ضرار فى ضَبَّة وقد طال عمره حتى أدرك يوم الجمل [٨] ، وعمرو ابن كلثوم فى تغلب [٩] وهانئ بن قبيصة فى شيبان ، وهو خطيب يوم ذى قار [١٠] ، وزهير بن جَناب فى كَلْب وقُضاعة [١١] ، وابن عمار فى طيِّئ ، وهو خطيب مِذْحِج كلها [١٢] . ومن خطبائهم لبيد بن ربيعة العامرى ، ومن قوله [١٣] :

وأَحْلِفُ قُسًّا ليتنى ولو أننى ... وأُعْبى على لقمانَ حكمَ التدبُّر

وهَيْذان بن شَيْخ الذى قال فيه الرسول صلوات الله عليه : ربَّ خطيب من عَبْس [١٤] ، وخُوَيْلد بن عمرو والعُشَراء بن جابر الغطفانيان [١٥] ، ومن خطباء

---

(١) البيان والتبيين ١/٣٥٨ — ٣٦٠ .
(٢) تاريخ الطبرى ، القسم الأول ص ١٠٩١ .
(٣) السيرة النبوية (طبعة الحلبى) ٢/١٢٤
(٤) الثنيتان : الأضراس فى مقدم الفم .
(٥) يدلع : يسترخى ، فلا يحسن النطق .
(٦) البيان والتبيين ١/٣١٧ .
(٧) نفس المصدر ١/٣٦٥ والأغانى (ساسى) ١٠/٦١ .
(٨) نفس المصدر ١/٣٤١ .
(٩) نفس المصدر ٢/١٤١ .
(١٠) أغانى (ساسى) ٢٠/١٣٧ .
(١١) نفس المصدر ٢١/٦٥ .
(١٢) البيان والتبيين ١/٣٤٩ .
(١٣) البيان والبيين ١/١٨٩ .
(١٤) البيان والتبيين ١/٢٧٣ .
(١٥) نفس المصدر ١/٣٥٠ .

غطفان أيضاً قيس بن خارجة بن سنان الذى خطب فى حرب داحس والغبْراء يوماً إلى الليل[١] وهـَرِم بن قـُطْبة الفزارى[٢] الذى احتكم إليه علقمة بن عُلاثة وعامر بن الطفيل، فقال لهما. ـ كما مربنا ـ : « أنتما كركبتى البعير الأدْرَم (الفحل) تقعان على الأرض معاً[٣] » .

ومن خطباء تميم المفوَّهين أكثم بن صيفىّ وضَمْرة بن ضَمْرة، ويروى أنه لما دخل على النعمان بن المنذر زَرَى عليه للذى رأى من دَمامته وقصره وقلته، فقال للنعمان : « تسمع بالمُعَيْدِىّ لاأن تراه» فقال : أبيتَ اللَّعن! « إن الرجال لاتُكال بالقُفْزان[٤] ولاتوزن بالميزان، وليستْ بمُسوك[٥] يُستَقَى بها، وإنما المرء بأصْغريه : بقلبه ولسانه، إن صال صال بجنَان، وإن قال قال ببيان[٦] » . ومن خطباء تميم أيضاً عُطارد بن حاجب بن زُرارة وهو خطيب وفدها، كما مر بنا بين يدى الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومنهم عمرو بن الأهتم المنقرىّ ، ولم يكن فى بادية العرب فى زمانه أخطب منه[٧] ، ويروى أن الرسول سأله عن الزِّبْرِقان بن بدر فقال « مانعٌ لحوزته ، مطاعٌ فى أدْنيه » فقال الزِّبرقان : « أما إنه قد علم أكثر مما قال ، ولكنه حسدنى شرفى » فقال عمرو : « أما لئن قال ما قال ، فو الله ما علمته إلا ضَيِّق الصدر ، زَمِرُ[٨] المروءة ، لئيم الخال، حديث الغنى . فلما رأى أنه قد خالف قوله الآخر قوله الأول ورأى الإنكار فى عينى رسول الله قال : « يا رسول الله ! رضيتُ فقلتُ أحسن ما علمت ، وغضبتُ فقلت أقبح ما علمت ، وما كذبت فى الأولى ، ولقد صدقت فى الآخرة » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك : « إن من البيان لسحراً[٩] » . ومن خطباء بنى منقر التميميين أيضاً قيس بن عاصم الذى قال فيه الرسول صلوات الله عليه حين رآه : هذا سيدُ أهل الوبر[١٠] ، وهو الذى قال فيه عَبْدة بن الطبيب حين مات[١١] :

وما كان قيسٌ هُلْكُهُ هُلْكَ واحدٍ ولكنهُ بُنْيانُ قومٍ تهدَّما

(١) البيان والتبيين ١/١١٦ .
(٢) البيان والتبيين ١/٣٦٥ .
(٣) أغانى (ساسى) ١٥/٥١ .
(٤) القفزان : جمع قفيز ، وهو مكيال عراق .
(٥) المسوك : جمع مسك وهو الجلد .
(٦) البيان والتبيين ١/١٧١ .
(٧) البيان والتبيين ١/٣٥٥ .
(٨) زمر : قليل .
(٩) البيان والتبيين ١/٥٣ .
(١٠) البيان والتبيين ٢/٣٣ .
(١١) البيان والتبيين ٢/٣٥٣ .

ومن خطباء إياد قُسُّ بن ساعدة، وهو الذى قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم : رأيته بسوق عكاظ على جمل أحمر وهو يقول : أيها الناس اجتمعوا واسمعوا وَعُوا ، من عاش مات،ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت (١) . ويقول الجاحظ : « ولإياد خصلة ليست لأحد من العرب ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذى رَوَى كلام قُسّ بن ساعدة وموقفَه على جمله بعكاظ وموعظته ، وهو الذى رواه لقريش وللعرب، وهو الذى عجَّب من حُسْنه وأظهر من تصويبه . وهذا إسنادٌ تعجز عنه الأمانى وتنقطع دونه الآمال (٢) » . على أن ابن حَجَر اتّهم هذا الإسناد (٣) ، وخاصة بعد توسُّع الرواة فى خطبة قس وتحميلهم لها إشارات بقرب مبعث الرسول عليه السلام، ومما لاريب فيه أن لها أصلا صحيحاً تزيَّد فيه الرواة .

وواضح أن هذه كثرة من الخطباء الجاهليين ، إن لم يصح ما أُثر عنهم من خطب فإن من المحقق أنهم خطبوا كثيراً فى أقوامهم وقبائلهم وإلا ما اشتهروا بالبراعة فى هذا اللون من ألوان اللَّسَن والبيان . وكان مما بعثهم على إحسانه حاجتهم إليه فى مواطن ومواقف عدة، وكان قلما يرتفع نجم سيد من سادتهم إلا والخطابة صفة من صفاته وسجية من سجاياه، حتى تساق له القلوب بأزمتها وتُجمع له النفوس المختلفة من أقطارها . وكل شىء يؤكد أن منزلة الخطيب عندهم كانت فوق منزلة الشاعر ، فهى قرين السؤدد والشرف والرياسة ، يقول أبو عمرو بن العلاء : « كان الشاعر فى الجاهلية يقدَّم على الخطيب لفَرْط حاجتهم إلى الشعر الذى يقيِّد عليهم مآثرهم ، ويفخم شأنهم، ويهوِّل على عدوهم ومَنْ غزاهم، ويهيِّب من فرسانهم، ويخوِّف من كثرة عددهم ، ويهابهم شاعر غيرهم ، فيراقب شاعرهم . فلما كثر الشعر والشعراء واتخذوا الشعر مكسبة ورحلوا إلى السوقة وتسرعوا إلى أعراض الناس صار الخطيب عندهم فوق الشاعر (٤) » . وعلى هدى هذا القول مضى الجاحظ يقول : « كان الشاعر أرفع قدراً من الخطيب ، وهم إليه أحوج لرده مآثرهم عليهم وتذكيرهم بأيامهم ، فلما كثر الشعراء وكثر الشعر صار الخطيب أعظم قدراً من الشاعر (٥) » .

---

(١) البيان والتبيين ١/٣٠٨ . وقارن باللآلئ المصنوعة للسيوطى ١/٩٥ .

(٢) نفس المصدر ١/٥٢ .

(٣) السيرة الحلبية (طبعة مصر) ١/٢١٠

(٤) البيان والتبيين ١/٢٤١ .

(٥) البيان والتبيين ٤/٨٣ .

وربما كان من أسباب ذلك أن الشاعر – إذا استثنينا زهيراً – كان هو الذى يهيج النفوس للحرب بما يدعو للأخذ بالثأر ، أما الخطيب فكان غالباً يدعو إلى السلم وأن تضع الحرب بين القبائل المتخاصمة أوزارها ، وكثيراً ما يقف من قومه موقف الناصح الأمين يهديهم ويرشدهم ، أما الشاعر فأكثر مواقفه هجاء وتنابذ بالألقاب والأحساب والمآثر والمعايب .

وقد تعارف خطباؤهم على جملة من السنن والتقاليد فى خطابتهم ، فكانوا يخطبون على رواحلهم فى الأسواق العظام والمجامع الكبار[١] ، وقد لاثوا العمائم على رءوسهم ، وفى أثناء خطابتهم كانوا يمسكون بالعِصِىّ والمخاصر والقضبان والقَنا والقِسِىّ راكبين أو واقفين على مرتفع من الأرض ، وأشار إلى ذلك لبيد إذ يقول[٢] :

ما إنْ أهابُ إذاالسُّرادِقُ عَمَّهُ ... قَرْعُ القِسِىِّ وأُرْعِشَ الرِّعْدِيدُ

ووقفت الشعوبية طويلاً عند عادة خطباء العرب من اتخاذ العصى والمخاصر ، وردَّ عليهم الجاحظ فى بيانه مبيناً فوائد العصا ، ومن قوله فى تلك العادة : « إن حَمْل العصا والمخصرة دليل على التأهب للخطبة والتهيؤ للإطناب والإطالة ، وذلك شىء خاص فى خطباء العرب ومقصور عليهم ومنسوب إليهم ، حتى إنهم ليذهبون فى حوائجهم ، والمخاصرُ بأيديهم إلفاً لها وتوقعاً لبعض ما يوجب حملها والإشارة بها[٣] »

وكانوا يمدحون فى الخطيب ثبات الجنان وحضور البديهة وقلة التلفت وكثرة الريق وجهارة الصوت وقوته ، وكانوا يعيبون فيه التنحنح والارتعاش والحَصَرَ والتعثر فى الكلام ، يقول النَّمِر بن تَوْلَب[٤] :

أَعذْنِى رَبِّ من حَصَرٍ وعِىٍّ ... ومن نَفْسٍ أعالجُها علاجــا

ويقول أبو العِيال الهذلى :

ولا حَصِرٌ بخُطْبَتِهِ ... إذا ما عَزَّتِ الخُطَبُ

وذموا فى الخطيب أن يُكثر من مَسِّه لذقنه وشواربه ولحيته ، وكأنما رأوا فى ذلك

---

(١) البيان والتبيين ٣/٧ .
(٢) نفس المصدر ١/٣٧٢ ، ٣/٩ .
(٣) البيان والتبيين ٣/١١٧ .
(٤) انظر فى هذا البيت وتاليه البيان والتبيين ١/٣ .

ضرباً من الخرق فى استخدام الجوارح ، يقول معن بن أوس المزنى فى بعض هجائه[١] :

إذا اجتمع القبائلُ جِئتَ رِدْفاً ... وراءَ الماسحين لك السِّبالا[٢]

فلا تُعْطَى عَصَا الخُطباء فيهم ... وقد تُكْفَى المقادةَ والمقـــالا

وكثيراً ما كانوا يتزيدون فى جهارة الصوت وينتحلون سعة الأشداق وهَدل الشفاه ، ومن أجل ذلك قال الرسول صلوات الله عليه : إياى والتشادق ، وقال : أبغضكم إلىَّ الثرثارون المُتَفَيْهِقون[٣] .

وإذا ذهبنا نستنطق النصوص عن أساليب خطابهم ، وهل كانوا يعمدون فيها إلى الأسلوب المرسل أو إلى الأسلوب المسجَّع وجدنا أنفسنا بإزاء تراث متَّهم لا يمكن الاعتماد عليه فى الاستنتاج ، لما قلنا مراراً من أن حقباً متطاولة تفصل بين العصر الذى دُوِّنت فيه تلك الخطب والآخر الذى قيلت فيه . ومع أن الكثرة الكثيرة من هذه الخطب منتحلة نلاحظ أن من نحلوها الجاهليين إنما قاسوها على أمثلة رُويت لهم ، فإذا لاحظنا أن أكثر مفاخراتهم ومنافراتهم رُوِىَ مسجوعاً كان معنى ذلك أنه ثبت عند من نحلوا الجاهليين هذه المفاخرات والمنافرات أنهم كانوا يسجعون فيها . وتستطيع أن ترجع إلى منافرة عبد المطلب بن هاشم وحرب بن أمية وتحكيمهما لنُفَيْل بن عبد العُزَّى فى تاريخ الطبرى[٤] فستجدها مسجوعة ، ومثلها منافرة جرير بن عبد الله البَجلى وخالد بن أرْطاة الكلبى إلى الأقرع بن حابس ، فقد رُويت فى شرح نقائض جرير والفرزدق لأبى عبيدة ، وهى مسجوعة[٥] ، ومثلهما منافرة علقمة بن عُلاثة وعامر بن الطُّفَيْل المروية فى كتاب الأغانى ، فهى الأخرى مبنية على السجع[٦] . ويجعل الجاحظ ذلك قاعدة عامة أو كالقاعدة العامة ، فيقول : « إن ضَمْرة بن ضمرة وهَرِم بن قُطبة والأقرع بن حابس ونُفَيْل بن عبد العُزَّى كانوا يحكمون وينفرون بالأسجاع ، وكذلك ربيعة بن حُذار[٧] »

---

(١) البيان والتبيين ١/٣٧٢ .

(٢) السبال : مقدم اللحية . يهجوه بأنه ليس رئيساً ولا خطيباً .

(٣) البيان والتبيين ١/١٣ . المتفيهق : الذى يفتح بالكلام جوانب فمه ويملؤه به .

(٤) الطبرى ، القسم الأول ص ١٠٩١ .

(٥) النقائض ١/١٤١ .

(٦) أغانى (طبعة الساسى) ١٥/٥١ .

(٧) البيان والتبيين ١/٢٩٠ .

كما يقول فى موضع آخر إنهم كانوا يستخدمون الأسجاع عند المنافرة والمفاخرة ، بينما كانوا يستعملون المنثور المرسل فى خطب الصلح وسَلّ السخيمة وعند المعاقدة والمعاهدة . وكأنهم عرفوا فى الجاهلية لونين من الخطابة لوناً مسجوعاً ولوناً مرسلا . ولا تظن أنهم فى خطابتهم المرسلة لم يكونوا يروّون فقد كانوا يعمدون إلى ما يثير السامعين من كلم بليغ ، حتى يؤثروا فيهم ويبلغوا ما يريدون من استمالتهم ، يقول الجاحظ : «لم نرهم يستعملون مثل تدبيرهم فى طوال القصائد وفى صنعة طوال الخطب، وكانوا إذا احتاجوا إلى الرأى فى معاظم التدبير ومهمّات الأمور ميّثوه[1] فى صدورهم وقيدوه على أنفسهم، فإذا قوّمه الثّقاف ، وأُدْخِلَ الكِير ، وقام على الخلاص أبرزوه محكّكاً منقحاً ومُصَفّى من الأدْناس مهذباً[2] » .

ومن يقرأ الفقر القصار والمحاورات المختصرة التى بقيت من تراثهم ، تلك التى يرويها الجاحظ ، يشعر حقّاً أنهم كانوا يبتغون التجويد فى كلامهم ، تارة بما يصوغونه فيه من سجع ، وتارة أخرى بما يخرجونه فيه من استعارات وأخيلة . ودائماً يعنون ببهاء اللفظ وقوته ونصاعته ، كما يعنون بوضوح الحجة ، وتصوّر أشعارهم جوانبَ من ذلك كقول لَبيد لهرم بن قُطْبة حين احتكم إليه عامر بن الطُّفيل وعلقمة بن عُلاثة[3] :

إنك قد أوتيت حُكْماً معجِبا فَطَبِّقِ المَفْصِلَ واغْنَمْ طَيِّبا

وواضح أنه يقول له : إنك قد أوتيت حكماً فاصلا قاطعاً يفصل بين الحق والباطل كما يفصل الجزار الحاذق مَفْصِلَ العظمين . ومن ذلك قولهم فلان يفل الحزّ ويصيب المَفْصِل ويضع الهِناء مواضع النُّقَبِ[4]. والعبارة الأخيرة مستعارة من صنيع الحاذق حين يلمّ الجرب بإبله فيضع دواءه فى مواضعه الدقيقة، يمثّلون بذلك للمصيب الموجز فى خطابته وبيانه ، كما مثلوه فى التعبيرين الأولين بالجزار الحاذق الذى يصيب عين الموضع من جَزوره سواء فى العظم أو فى اللحم . وقد يشبهون كلامهم بالسهام المصمية، ومن ثم استخدموا كلمة مِدْره للشجاع والخطيب المفلق فى الوقت نفسه، وأصل معناها المِرامى ، فاستعيرت من رامى السهام لرامى الكلام

---

(١) ميثوه : ذللوه .

(٢) البيان والتبيين ٢/١٤ .

(٣) البيان والتبيين ١/١٠٩ .

(٤) نفس المصدر ١/١٠٧. الهناء : القطران . والنقب : أول ما يبدو من الجرب فى الإبل .

الذى يبلغ به ما يريد من إصابة خصمه والنكاية به ، يقول زهير بن أبى سلمى [١] :

وَمِدْرَهُ حَرْبٍ حَمْيُها يُتَّقَى بِهِ   شديدُ الرِّجام باللسان وباليَدِ

ونراهم يصفون خطباءهم بأنهم مصاقع ولُسْن، وافتخروا بذلك طويلا على نحو ما نجد عند قيس بن عاصم المِنْقَرِى يصف ما فيه وفى عشيرته بنى مِنْقَر من الخطابة والفصاحة [٢] :

إنى امروٌ لا يَعْترِى خُلُقِى   دَنَسٌ يُفَنِّدُه ولا أَفَنُ [٣]

من «مِنْقَرٍ» فى بيت مكرُمةٍ   والأَصلُ ينبت حوله الغُصُنُ

خطباءُ حين يقوم قائلهم   بيض الوجوه مصاقعٌ لُسُن

وقد حذروا طويلا من شدة وقع اللسان ، وقالوا إن جرح اللسان كجرح اليد وإنه عضب وقاطع كالسيف ، يقول طرفة [٤] :

بِحُسام سيفك أو لسانك وال   كَلِمُ الأَصيلُ كأَرْغَب الكَلْمِ

ولعل مما يدل دلالة قاطعة على أنهم أحسوا بجمال ما يلفظ به خطباؤهم أننا نراهم يشبهون كلامهم بالثياب الموشَّاة وبالحُلل والدِّيباج وأشباه ذلك ، يقول أبو قُرْدودة الطائى فى رثاء ابن عَمَّار خطيب مَذْحِج وقد مات مقتولا [٥] :

ومنطقٍ خُرِّق   بالعَواسلِ   لَذٍّ كَوَشْى اليُمْنَةِ المَرَاحلِ [٦]

ولعل فى كل ما قدمنا ما يدل دلالة واضحة على أن الخطابة كانت مزدهرة فى الجاهلية ، فقد كانوا على حظ كبير من الحرية ، وكانوا يخطبون فى كل موقف : فى المفاخرات وفى الدعوة إلى السلم أو الحرب وفى النصح والإرشاد وفى الصهر والزواج . وابتغوا دائماً فى كلامهم أن يؤثر فى نفوس سامعيهم بما حققوا له من ضروب بيان وبلاغة .

---

(١) ديوان زهير (طبعة دار الكتب) ص ٢٢٣ .

(٢) البيان والتبيين ١/٢١٩ .

(٣) يفند : ينقض ويضعف . الأفن : ضعف الرأى .

(٤) البيان والتبيين ١/١٥٦ . أرغب : أوسع : الكلم بسكون اللام : الجرح .

(٥) البيان والتبيين ١/٣٤٩ .

(٦) العواسل : الرماح . المراحل : جمع مرحل وهو ما نقش فيه تصاوير الرحال .

٤

سجع الكهان

كانت فى الجاهلية طائفة تزعم أنها تطلع على الغيب وتعرف ما يأتى به الغد بما يُلْقى إليها توابعها من الجن، وكان واحدها يسمَّى كاهناً كما يسمى تابعه الذى يوحى إليه باسم « الرَّئِىِّ » . وأكثرهم كان يخدم بيوت أصنامهم وأوثانهم ، فكانت لهم قداسة دينية ، وكانوا يلجأون إليهم فى كل شئونهم ، وقد يتخذونهم حُكاماً فى خصوماتهم ومنافراتهم على نحو ما كان من منافرة هاشم ابن عبد مناف وأمية بن عبدشمس واحتكامهما إلى الكاهن الخزاعى ، وقد نفَّر هاشماً على أمية[١] . وكانوا يستشيرونهم ويصدرون عن آرائهم فى كثير من شئونهم كوفاء زوجة أو قتل رجل أو نَحْر ناقة[٢]، أو قعود عن نُصْرة أحلاف[٣] ، أو نهوض لحرب ، ففى أخبار بنى أسد أن حجراً أبا امرئ القيس رَقَّ لهم ، فبعث فى إثرهم فأقبلوا حتى إذا كانوا على مسيرة يوم من تهامة تكهَّن كاهنهم ، وهو عوف بن ربيعة ، فقال لبنى أسد : « يا عبادى ! قالوا لبيك ربَّنا ، قال: من الملك الأصْهب ، الغلاَّب غير المغلَّب ، فى الإبل كأنها الرَّبْرب[٤] ، لا يعلق رأسه الصَّخَب ، هذا دمه يَنْشَعِب[٥] ، وهذا غداً أولُ من يُسْلَبُ، قالوا: من هو يا ربَّنا ؟ قال: لولا أن تجيش نفسٌ جاشية، لأخبرتكم أنه حُجْر ضاحية . فركبوا كل صعب وذَلول فما أشرق لهم النهار حتى أتوا على عسكر حُجْر فهجموا على قُبَّته » وقتلوه[٦] . وكثيراً ما كانوا ينذرون قبائلهم بوقوع غزو غير منتظر[٧] ، كما كانوا كثيراً ما يفسرون رُؤاهم وأحلامهم[٨] .

فمنزلة كهَّانهم فى الجاهلية كانت كبيرة ، إذ كانوا يعتقدون أنه يوحَى إليهم ، ولعل ذلك ما جعل نفوذ الكاهن يتجاوز قبيلته إلى كثير من القبائل التى تجاورها ،

---

(١) السيرة الحلبية ١/ ٤ .
(٢) أغانى (طبعة دار الكتب) ١١/ ١١٨
(٣) أغانى ١١/ ١٤٠ .
(٤) الربرب : القطيع من الظباء .
(٥) ينشعب : يسيل .
(٦) أغانى ٩/ ٨٤ .
(٧) الأمالى للقالى ١/ ١٢٦ والسيرة النبوية ١/ ٤٣ ، ٢٢١ .
(٨) السيرة النبوية ١/ ١٥ وما بعدها .

ومن ثَمَّ كان العرب يقصدون كثيرين منهم من مناطق بعيدة، ومما يلاحَظ أنهم كانوا يكثرون فى اليمن وفى بيوت عبادتها الوثنية، وخاصة مَنْ يتعمقون فى القدم، ولعل فى ذلك ما يدل على الصلة القديمة بين وثنية عرب الجنوب وعرب الشمال. وتلقانا فى كتب التاريخ والأدب أسماء كثيرين منهم وقد يبالغ القُصَّاص، فيرسمون لبعضهم صوراً خيالية، فمن ذلك أن شِقَّ بن الصَّعْب كان شق إنسان أو شطره فله عين واحدة ويد واحدة ورجل واحدة، وأن سطيح بن ربيعة الذئبى لم يكن فيه عظم سوى جمجمته وأن وجهه كان فى صدره ولم يكن له عنق[1]، وربما كان أحدب. ومن كهانهم فى أواخر العصر الجاهلى سَواد بن قارب الدَّوْسىّ وقد أدرك الإسلام ودخل فيه[2]، ومنهم المأمور الحارثى، كاهن بنى الحارث بن كعب[3]، وخُنافر الحميرى، وكان يقول إنه أسلم بمشورة تابعه «شِصار[4]». وأكهنهم عُزَّى سَلِمة، يقول الجاحظ: «أكهن العرب وأسجعهم سَلِمة بن أبى حَيَّة وهو الذى يقال له عزَّى سَلِمة[5]». ومن قوله[6]: «والأرض والسماء، والعُقاب والصَّقْعاء، واقعةٌ ببَقْعاء، لقد نَفَّر المجدُ بنى العُشَراء للمجد والسناء[7]». ونجد بجانب هؤلاء الكهان جماعة من الكاهنات، وربما كنَّ فى الأصل من النساء اللائى يهبن أنفسهن للآلهة ومعابدها، ومن أشهرهن الشَّعْثاء[8] وكاهنة ذى الخَلَصَة[9] والكاهنة السَّعْدية[10] والزرقاء[11] بنت زهير والغَيْطلة القرشية[12] وزَبْراء كاهنة بنى رِئام، ويروى أنها أنذرتهم غارة عليهم فقالت: «واللوح الخافق والليل الغاسق والصباح الشارق والنَّجْم الطارق والمُزْن الوادق، إن شجر الوادى ليأدو خَتْلا، ويَحْرُق أنياباً عُصْلا، وإن صخر الطَّوْد ليُنذر ثُكْلا، لا تجدون عنه مَعْلا[13]».

---

(١) عجائب المخلوقات للقزوينى ١/١٧١.
(٢) السيرة النبوية ١/٢٣٣.
(٣) الأمالى ١/٢٧٦ واسمه فيه المأمون، وانظر ٣/١٥١ والأغانى ١٥/٧٠.
(٤) الأمالى ١/١٣٣.
(٥) البيان والتبيين ١/٣٥٨.
(٦) نفس المصدر ١/٢٩٠.
(٧) الصقعاء: الشمس، بقعاء: ماء أو موضع. نفر: حكم بالغلبة. بنو العشراء: عشيرة من فزارة. السناء: الرفعة.
(٨) مجمع الأمثال للميدانى ١/٩١.
(٩) نفس المصدر ١/٢٢٣.
(١٠) نفس المصدر ٢/٥٤.
(١١) أغانى (دار الكتب) ١٣/٨١.
(١٢) سيرة ابن هشام ١/٢٢١.
(١٣) اللوح هنا: الريح. الوادق: المطر. يأدو: يختل. يحرق أنياباً عصلا: كناية عن الغضب والشر. عصلا: معوجة. الطود: الجبل. المعل: الملجأ. انظر الأمالى ١/١٢٦.

ونحن لا نطمئن إلى ما يُرْوَى فى كتب التاريخ والأدب من أقوال جرتْ على ألسنة هؤلاء الكهان والكاهنات، فإن بُعْد المسافة بين عصور التدوين والعصر الجاهلى يجعلنا نتهم مثل هذه الأقوال، إذ من الصعب أن تُرْوَى بنصّها وقد مضى عليها نحو قرنين من الزمان . وإنما استشهدنا ببعض منها لندل على أنه ثبت فى أذهان من تحدثوا عن الكهّان والكاهنات فى الجاهلية أنهم كانوا يعتمدون على السجع فى كلامهم ، ولذلك حين أجروا ألسنتهم بالكلام جعلوه مسجوعاً على شاكلة ما رويناه من أقوالهم. ومعنى ذلك أنه وُجد فى العصر الجاهلى سجع كان يقوله الكهان ، وقد اختلط الأمر على بعض قريش فى أول نزول الذكر الحكيم ، فقرنوه بسجع كهنتهم وردّ عليهم القرآن الكريم بمثل قوله جلّ وعز : (ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون) وقال سبحانه وتعالى : (فذكر ، فما أنت بنعمة ربك بكاهن) وقال : (إنه لقول رسول كريم ، وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون) .

ومما يدلّ على أن كهنتهم كانوا يسجعون ، بل كانوا لا يتكلمون إلا بالسجع ، الحديثُ المروىُّ عن أبى هريرة، فقد حدّث أنه « اقتتلت امرأتان من هُذَيل ، فرمتْ إحداهما الأخرى بحجر ، فقتلتها وما فى بطنها ، فاختصموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقضى رسولُ الله أن دِيَةَ جَنينها غُرَّة : عبد أو وليدة ، وقضى بدية المرأة على عاقلتها[1] . . . فقال حمل بن النابغة الهُذَلى : يا رسول الله كيف أغرم من لا شرب ولا أكل ولا نطق ولا استهلّ[2] ، فمثل ذلك يُطَلّ[3]، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنما هذا من إخوان الكُهّان، من أجل سجعه الذى سجع[4] » . ويقول الجاحظ : « كان حازى (كاهن) جُهَينة وشِقّ وسطيح وعُزّى سلمة وأشباههم يتكهنون ويحكمون بالأسجاع[5] » .

وإذا صح أن ما يروى فى كتب التاريخ والأدب من سجع الكهان تقليد دقيق لما كانوا يأتون به من هذا السجع لاحظنا أنهم لم يكونوا يسجعون فحسب ،

---

(١) عاقلة المرأة : عصبتها الذين يتضامنون معها فى دفع الدية .
(٢) استهل : صاح .
(٣) يطل : يهدر دمه .
(٤) صحيح مسلم (طبعة الآستانة) ٥/ ١١٠ وانظر موطأ مالك (طبع حجر بالقاهرة) ٢/ ١٩٢ .
(٥) البيان والتبيين ١/ ٢٨٩ وما بعدها .

بل كانوا يعمدون أيضاً إلى ألفاظ غامضة مبهمة ، حتى يتركوا فسحة لدى السامعين كى يؤوّل كل منهم ما يسمعه حسب فهمه وظروفه . ومن ثم دخل الرمز فى كثير من أقوالهم ، إذ يومئون إلى ما يريدون إيماء ، وقلما صرحوا أو وضّحوا ، بل دائماً يأتون المعانى من بعيد ، بل قل إنهم كانوا لا يحبون أن يصوروا فى وضوح معنى ، ويتخذوا له أشباحاً واضحة من اللفظ تدل عليه ، لأن ذلك يتعارض مع تنبئهم الذى يقوم على الإبهام والوهم واختيار الألفاظ التى تخدع السامع وجوهاً من الخُدَع ، ومن ثَمّ كان من أهم ما يميز أسجاعهم عدم وضوح الدلالة وأن يكثر فيها الاختلاف والتأويل .

وليس هذا كل ما يلاحَظ على السجع الذى يضاف إليهم ، فإنه يلاحَظُ عليه أيضاً كثرة الأقسام والأيمان بالكواكب والنجوم والرياح والسحب والليل الداجى والصبح المنير والأشجار والبحار وكثير من الطير . وفى ذلك ما يدل على اعتقادهم فى هذه الأشياء وأن بها قوى وأرواحاً خفية ، ومن أجل ذلك يحلفون بها ، ليؤكدوا كلامهم وليبلغوا ما يريدون من التأثير فى نفوس هؤلاء الوثنيين .

وهذا السجع الدينى كان يقابله — كما قدمنا — سجع آخر فى خطابتهم ، بل فى كلامهم وأمثالهم التى دارت بينهم . ولعل فى ذلك كله ما يدل على أن الجاهليين عُنوا بنثرهم كما عنوا بشعرهم ، فقد ذهبوا يحاولون تحقيق قيم صوتية وتصويرية مختلفة فيه ، تكفل له جمال الصياغة وروعة الأداء .

خاتمة

خلاصة

حاولتُ فى الصحف السابقة أن أؤرخ للأدب العربى فى العصر الجاهلى ، فتحدثت عن صفة الجزيرة العربية وتاريخها القديم ، وكيف أنها كانت مهد الساميين ، إذ خرجوا منها موجة فى إثر موجة ، وكانت موجة العرب الجنوبيين الذين يمّموا حوض المحيط الهندى آخر موجاتهم ، وكانت تفصلهم من عرب الشمال صحراوات واسعة جعلتهم يستقلون عنهم فى لغتهم وخصائصها النحوية ، كما جعلتهم يستقلون عنهم فى حضارتهم . ومع ذلك فقد ظلت قائمة بين الجنوبيين والشماليين أو القحطانيين والعدنانيين صلات اقتصادية ودينية وسياسية أتاحت لهم ضروباً من التداخل والتشابك . واستطاع الشماليون أن ينفذوا فى آخر الأمر إلى صورة خطّهم العربى المعروف .

ومضيتُ أتحدث عن العصر الجاهلى وحدّدته بنحو قرن ونصف قبل الإسلام ، أما ما قبل ذلك فهو الجاهلية الأولى ، وكل ما بأيدينا من شعر قديم إنما يرجع إلى العصر الجاهلى أو الجاهلية الثانية . ونحن نفاجأ فى أول هذا العصر باكتمال الخط العربى ، كما نفاجأ بهذا الشعر الناضج الذى يضاف إلى الجاهليين . وأخبارهم واضحة تمام الوضوح ، فقد كانت تقوم فى الشمال إمارات الغساسنة والمناذرة وكندة ، بينما كانت تتجمع قلوب العرب حول مكة ، فهى بيت كعبتهم وعبادتهم الوثنية ، وهى مركز تجارتهم وقوافلهم التى تربط بين حوضى المحيط الهندى والبحر المتوسط ، ووراءها قبائلهم البدوية ، وكانت تنتظم قسمين كبيرين من عرب الشمال العدنانيين وعرب الجنوب القحطانيين الذين هاجروا من ديارهم إلى ديار الشماليين منذ أزمان بعيدة . وكانت كل قبيلة وحدة قائمة بنفسها ، وهى وحدة دعمتها وشائج متينة من العصبية . وكان لكل قبيلة سيد ومجلس يضم شيوخ عشائرها ، وواجبات السيد دائماً أكبر من حقوقه ، ومن ورائه أفراد قبيلته متضامنين أوثق ما يكون التضامن ، وخاصة حين يُطلب ثأر أو تنشب حرب ، وقد تحولوا بجزيرتهم إلى ما يشبه ميداناً حربياً كبيراً ، ففى كل مكان عراك وقتال وفى كل مكان دماء تسيل . ولهم حروب

مشهورة سجّلها علماء اللغة والأدب فى العصر العباسى كحرب البَسُوس وحرب داحس والغبْراء .

وانتقلتُ من ذلك أبحث فى حياتهم وأحوالهم الاجتماعية ولاحظت أن مجتمع القبيلة كان يتألف من ثلاث طبقات ، هى أبناؤها ومواليها وعبيدها ، وكان أهم شىء يشدُّ من بنيان هذا المجتمع حرصهم على الشرف وما سموه المروءة ، إذ كان كل منهم يحرص على البذل والشجاعة والوفاء وحماية الجار وإباء الضيم ، وتخلّلت ذلك آفات ، أهمها : الخمر والقمار واستباحة النساء . وقد تأخذ هذه الآفات عند بعض الشباب أمثال طَرَفة شكل فتوة جامحة . ومن المؤكد أنه كان للمرأة الحرة عندهم منزلة كريمة . ولم تكن معيشتهم واحدة ، فقد كانت الزراعة منتشرة فى الجنوب والشرق وواحات الحجاز ، وكان أهل مكة يعيشون على التجارة ، على حين كان البدو يعيشون على رَعْى الأغنام والأنعام وصيد الحيوان ، وكان بينهم سادة يملكون مئات الإبل وصعاليك لا يملكون شيئاً . ومع أنهم كانوا على صلة بالحضارات المجاورة كانوا لا يزالون أقرب إلى طور البداوة ، وكان علم الأنساب أهم علومهم ، ولم يكن لهم وراءه إلا معارف محدودة تقوم على التجربة الناقصة كبعض معارفهم الطبية والفلكية . وكانت كثرتهم وثنية تتعبّد لآلهة وأصنام وأوثان كثيرة ، وكانت الكعبة فى مكة أكبر معابدهم ، وكانوا يحجون إليها فى أشهر معلومات . على أن نفراً منهم شكّوا فى أواخر هذا العصر فى دينهم الوثنى والتمسوا دين إبراهيم ويسمّون المتحنّفة والحنفاء وكأنما كانوا إرهاصاً لظهور الإسلام والدعوة المحمدية . وكانت النصرانية فى أثناء ذلك تنتشر فى القبائل المحاذية للشام والعراق بينما كان كثير من اليهود ينزلون فى واحات الحجاز وفى اليمن ، وتعربت كثرتهم إلا أن العرب ظلوا يزدرونهم وينفرون من دينهم .

ولما تمّ لى بيان هذه الجوانب أخذت أبحث فى اللغة العربية وعناصرها السامية القديمة ، ووقفت عند أقدم لهجاتها المثبتة فى النقوش ، وهى الثمودية واللّحيانية والصّفوية ، تلك التى كتبتْ نقوشها بالخط المُسند الجنوبى ، ثم اللهجة النبطية ، وكانت نقوشها تكتب بالخط الآرامى ، ومنه نشأ تطور الخط العربى فى الحجاز . وتختلف هذه اللهجات الأربع اختلافات كثيرة عن لغة الجاهليين ، وإن كان

من المؤكد أن اللهجة النبطية أقربها جميعاً إليها ، وقد أخذت فى الدثور منذ القرن الثالث للميلاد ، بينما أخذت تحل محلها مقدمات الفصحى بحيث لا نصل إلى نهاية القرن الخامس وأوائل السادس الميلادى حتى تتكامل تكاملا تاماً وتعمّ بين القبائل النجدية وفى الحيرة وبين الغساسنة ، وتصبح هى اللغة العامة المتداولة بين الشعراء . وكانت هناك لهجات قبلية كثيرة ولكن الفصحى ظفرت بها جميعاً فى المجال الأدبى ، بحيث كان الشعراء فى كل قبيلة ينظمون بها مرتفعين عن لهجاتهم القبلية أو المحلية . وقد حار المستشرقون طويلا فى معرفة اللهجة التى سادت بين القبائل فى الشمال وأصبحت اللهجة الأدبية الشائعة على كل لسان ، وأثبتُّ أنها لهجة قريش ، إذ تآزرت بواعث دينية واقتصادية وسياسية على أن تتم لها هذه السيادة منذ أوائل العصر الجاهلى .

وبحثتُ عقب ذلك فى رواية الشعر الجاهلى وتدوينه ، مبيناً كيف تضافرت جهود القبائل العربية ورجالاتها وشعرائها على حَمْله جيلاً بعد جيل ، حتى تسلّمه منهم طبقة من الرواة المحترفين فى البصرة والكوفة ، وكان بينهم الثقة الذى لا يرتفع شك إلى روايته مثل المفضل الضبى والأصمعى والمتهم الذى يجمع العلماء على إبطال روايته مثل حماد وخلف الأحمر . وفى تضاعيف ذلك كان الشعر الجاهلى يدوَّن ، بحيث لا نصل إلى أوائل القرن الثالث للهجرة حتى يتكامل تدوينه . والذى لا شك فيه أنه دخله انتحال كثير ، ولم يكن القدماء غائبين عن ذلك ، فقد نصّوا على كل ما شكّوا فيه من رُواة ومن شعر ، حتى يحيطوه بسياج من التوثيق ، أو بعبارة أدق حتى يحيطوا الصحيح منه . ومنذ أواسط القرن الماضى يلم المستشرقون بالمشكلة ، واندفع منهم مرجليوث فى هذا القرن يزعم أن الشعر الجاهلى جميعه منحول على أهله ، وهبّ كثير من المستشرقين يردُّون عليه ، ومن ذهب مذهبه فى تعميم الحكم على الشعر الجاهلى بالانتحال والوضع طه حسين ، وإن لم يتسع بحكمه اتساع مرجليوث ، وعلى هَدْى من آراء طه حسين ومرجليوث جميعاً تناول القضية بلاشير فى الجزء الأول من كتابه « تاريخ الأدب العربى » . وقد ناقشتُ آراءه وآراء غيره من الباحثين ، وانتهيت إلى أن هناك شعراً منتحلا كثيراً لا سبيل إلى الثقة به ، ولكنْ بجانبه شعر صحيح رواه الثقات وعلى رأسهم المفضل الضبى

والأصمعى ، وهو الذى نستند عليه فى دراسة الأدب الجاهلى ، دراسة نُخضعه فيها لبحث داخلى دقيق . ومن أجل ذلك وقفتُ عند مصارده لأدلّ على قيمتها ومدى توثقها .

ومضيت أبحث فى خصائص الشعر الجاهلى ، فتحدثت عن نشأته وأنها انطمرت فى ثنايا الجاهلية الأولى، بحيث لا نجد منذ أوائل العصر الجاهلى أو الجاهلية الثانية شيئًا نستبين منه طفولته ، إنما نجد هذه الصورة النموذجية المعروفة للقصيدة الجاهلية ، وهى صورة شاعت بين القبائل جميعًا ، وكان للقبائل المضرية منها بالذات الحظ الأوفر . ووقفتُ عند موضوعاته ، ولاحظت فيها بقايا من الصلة القديمة بين شعرهم والأناشيد الدينية التى كانوا يرتلونها لآلهتهم ، كما وقفت عند معانيه ولاحظت أنها حسية تغلب عليها السطحية والتقريرية والسرعة السريعة، أما ألفاظه فكاملة الصياغة حافلة بالصقل والتجويد، زاخرة بقيم موسيقية وتصويرية كثيرة.

وأفردتُ بعد ذلك فصولا لأربعة من الشعراء ، يعدهم النقاد السابقين المجلِّين فى العصر الجاهلى ، وهم امرؤ القيس والنابغة وزهير والأعشى . واعتمدت فى دراسة الثلاثة الأولين على رواية الأصمعى لدواوينهم ، وبدأت بامرئ القيس ، فتحدثت عن حياته وكيف دخلتها الأسطورة ، ثم تحدثت عن ديوانه ، وبحثته بحثًا داخليًا ، فإذا أكثر ما يضاف إليه تشوبه الريبة بشهادة الأصمعى ، واستظهرت أن تكون المعلقة وتاليتها فى ديوانه صحيحتين فى جملتهما ومثلهما القصيدتان الحادية عشرة والسابعة والعشرون لأنهما من رواية أبى عمرو بن العلاء ، الثقة الصدوق . ولا يبقى له بعد ذلك إلا مقطوعات قصيرة تعرَّض فيها لمن أجاروه ومن رفضوا جواره . واستطعتُ من خلال هذه النصوص القليلة أن أوزِّع شعره على دورتين فى حياته، دورة غلب عليه فيها اللهو والعبث، ودورة ثانية غلب عليه فيها الحزن والإحساس بسوء المصير . وأخيراً صورتُ خصائصه الفنية مبينًا منزلته فى الشعر الجاهلى وكيف عُدّ أباه غير منازع ولا مدافع .

وبحثتُ بعده النابغة الذبيانى ، فتحدثت عن حياته ، وكيف أمضاها فى بلاط المناذرة والغساسنة سفيراً لقومه الذبيانيين ، وكيف كان يحتلّ بين الشعراء مكانة مرموقة فى داخل الجزيرة وفى مكة وسوق عُكاظ . وبحثتُ فى ديوانه على ضوء رواية

الأصمعى ، وأنكرت منها خمس قصائد على رأسها قصيدته فى المتجردة .وشعره من هذه الناحية أوثق من شعر امرئ القيس لأنه أقرب منه عهداً ، ولم تدخل الأسطورة فى حياته ولا فى شعره . ووقفتُ عندما اشتهر به من مديح واعتذار ، مبيناً قدرته على الوصف ورَصْف الموضوعات وتنسيق المعانى وابتكار الصور والأخيلة ، يهديه فى ذلك كله ذوق مهذب ، هذبته الحضارة التى نعم بها فى الحيرة وعند الغساسنة ، فإذا هو صاحب حسٍّ دقيق وشعور رقيق .

وكان يعاصره زهير بن أبى سُلمى المزنى ، وقد نشأ فى بنى مرة الذبيانيين بحيث عُدَّ فيهم ، وتصادف أن كان خاله شاعراً وأن كان زوج أمه أوس بن حَجَر من كبار الشعراء الجاهليين ، فحَمَّل عنهما جميعاً الشعر ، وعاش له يتعلمه ويعلمه شعراء من بيته ومن غير بيته ، بحيث أصبح أستاذاً لمدرسة عُرفت به . وقد وقفتُ عند ديوانه وأسقطت منه ما أسقطه الأصمعى . ولاحظت أن الشعر عنده انتهى إلى صورة مثالية من التنقيح والتحبير فى قوالبه وصيغه تحبيراً لاحظه القدماء إزاء بعض مطولاته ، فقالوا إنه يصنع القصيدة فى حول كامل وإن له سبع حوليَّات . وهو يضم إلى هذا التحبير عناية بعيدة بالتشبيهات والاستعارات ، بحيث يُعَدّ حقاً شاعر التصوير فى العصر الجاهلى وكان يكثر من الحِكَم ومن الدعوة إلى الخير والسلام ، فلا نغلو إذا قلنا إن شعره يعد صورة رفيعة للخير والحق والجمال .

وانتقلتُ إلى الأعشى ، فتحدثت عن حياته التى كان ينفقها متنقلا فى أنحاء الجزيرة ، ثم عرضت لديوانه ، واضطررت لبحثه من خلال رواية يكثر فيها الانتحال ، وتصادف أن كان راويةُ شعره مسيحياً ، فنحله كثيراً من الأفكار المسيحية ، وتداول شعره القُصَّاصُ والوعَّاظ المسلمون ، فأضافوا إليه أشعاراً كثيرة ، لغرض العظة والاعتبار . كما أضاف إليه الرواة غير قصيدة ، كقصيدته رقم ٢٤ التى تحكى قصة وفاء السموأل . وجَعَلنا هذا كلَّه نشك فى كثير من قصائده وأشعاره ، وإذا بنا نرفض أكثرها ، ولا نُبْقى له إلا على نحو عشرين قصيدة . وقد لاحظتُ عليه غلوّاً فى المديح وتأثراً دقيقاً بالحضارة التى عاصرته فى الحيرة ، حتى ليقرّب شعره من شعر العباسيين لا فى معانيه فحسب ، بل أيضاً فى سهولة ألفاظه وخفة أوزانه . ونفس الموضوعين الأساسيين اللذين يدور فيهما شعره لا يختلفان

فى شىء عما نقرؤه للعباسيين ونقصد وصفه للخمر وغزله وتدلهه فيه وما قد يلاحَظ عنده من المبالغة المسرفة وكثرة التضمين .

وخرجتُ من هؤلاء الشعراء المبرزين إلى دراسة طوائف من الشعراء اتفقوا فى اتجاه من اتجاهات الحياة الجاهلية ، فدرستُ أولا الفرسان وما يصوِّرون فى أشعارهم من بطولتهم ومثاليتهم الخلقية الرفيعة . ثم درست الصعاليك وما يصورونه فى أشعارهم من غاراتهم وما نحسُّه عند نفر منهم من تسام وعون للفقراء والمعوزين . ثم بحثت فى شعراء اليهود مبينًا كثرة ما نُحل عليهم . ووقفت عند النصارى من الشعراء أمثال عدىّ بن زيد العبادى ، ولاحظت أن شعراً كثيراً زيِّف عليه . ولا نبالغ إذا قلنا إن أكثر ما يضاف إلى أمية بن أبى الصَّلْت ، إن لم يكن كله ، موضوع منتحل . وتدور الأشعار المضافة إليه فى موضوعين أساسيين ، هما نشأة الكون وما يتصل بها من خلق السموات والأرض ، والموت أو الفناء وما يعقبه من العذاب والثواب .

ولما فرغتُ من بحث الشعر الجاهلى وشعرائه انتقلت أبحث فى النثر الجاهلى ، فلاحظت أن الجاهليين لم يعرفوا الرسائل الأدبية المحبرة ، ولكنهم عرفوا القصص والأمثال والخطابة وسجع الكُهَّان . ومن الحق أنهم لم يدوِّنوا شيئًا من قصصهم ، غير أن ما أضافه العباسيون إليهم يصوِّر غير قليل من روحه وطبيعته . وعرضتُ لأمثالهم وما كان من ازدهار الخطابة بينهم واصطلاحهم فيها على طائفة من السُّنن والتقاليد . وكان كُهَّانهم يحاولون التأثير البالغ فى نفوس سامعيهم بما يسوقون إليهم من أسجاع وألفاظ غريبة وأقسام وأيمان موهمة . وكل ذلك يؤكد أن الجاهليين حاولوا فى نثرهم ما حاولوه فى شعرهم من روعة الأداء ، حتى يستأثروا بقلوب سامعيهم ويخلبوا عقولهم وألبابهم .

تعليق

واضح أن الصورة السابقة للأدب الجاهلى إنما تُعْنى بإبراز خطوطه الأساسية ، ومن الحق أن هناك خطوطًا صغرى لا يبرزها البحث ، فنحن مثلا إنما تحدثنا عن الشعراء المجلّين ، وتركنا كثيرين لم نكد نلمّ بهم إلا بعض اقتباسات من

أشعارهم نثرناها نثراً فى بعض الفصول . وإنما تركنا تفصيل الحديث عنهم ، إما لأن ما وصلنا من أشعارهم قليل لا يسوّى صورة أدبية تامة لهم ، وإما لأن الانتحال باد فى كثير مما يضاف إليهم من أشعار وأخبار . ولنقفْ قليلا عند أصحاب المعلقات الذين لم نفردهم بالدرس ، وهم عمرو بن كلثوم والحارث بن حِلِّزة وعَبيد بن الأبرص وطرفة وعنترة ولبيد ، فأما عمرو والحارث فإنهما مُقِلاَّن ، وقد تشكك ابن سلام فى شعر عَبيد بن الأبرص ولم يصحح له سوى المعلقة وقال إن شعره مضطرب ذاهب[1] . أما طرفة فيقول ابن سلام إنه أشعر الناس واحدة[2] ، وهى قوله :

لِخَوْلَةَ أَطلالٌ بِبُرْقَةِ ثَهْمَدِ وقفتُ بها أَبكى وأَبْكى إلى الغَد[3]

وفيها أبدع فى وصف ناقته ، إذ لم يترك فيها صغيرة ولا كبيرة إلا رسمها ، وكأنه يريد أن ينحت لها تمثالا ، لا يغادر ذاكرة الجاهليين . والتصوير والحكمة جميعاً يتداخلان فى شعره ، وهو من هذه الناحية يشبه النابغة وزهيراً ، على أنهما يتقدمانه ويفضلانه . وأيضاً فإنه مقل والأسطورة تجرى فى أخباره ، ولذلك كله لم نفرده بالبحث . وأما عنترة فقد تحدثنا عنه فى تضاعيف كلامنا عن الفرسان . ولبيد مع أنه لحق الجاهلية عاش طويلا فى الإسلام ، فأولى أن يدرس فى المخضرمين .

وقل ذلك نفسه فيمن تركناهم من شعراء الجاهلية غير أصحاب المعلقات ، فقد تركنا أوس بن حَجَر لأن فنه يندمج فى فن تلميذه زهير ، ولأن الرواة خلطوا بين أشعاره وأشعار ابنه شُرَيْح[4] وعَبيد[5] بن الأبرص . ونرى ابن سلام يسلك معه فى طبقته — وهى الثانية — بشر بن أبى خازم الأسدى وهو مقل ، وفى شعره مصنوع كثير[6] . وجميع الطبقة الثالثة عند ابن سلام من المخضرمين ، أما الطبقة الرابعة فسلك فيها طرفة وعبيداً ومرَّ رأينا فى أشعارهما . ونراه يضم إليهما عدىّ بن زيد العبادى ، وأسلفنا الحديث عنه بين أصحاب الديانات السماوية ، كما يضم علقمة ابن عَبَدة ويذكر له ثلاث قصائد جياد ، ويقول : لا شىء له بعدهن يُذْكَرُ[7] .

---

(١) ابن سلام ص ١١٦ .
(٢) ابن سلام ص ١١٥ .
(٣) الرواية المشهورة للشطر الثانى فى البيت :
« تلوح كباقى الوشم فى ظاهر اليد » .
(٤) الحيوان ٦/٢٧٩ .
(٥) ابن سلام ص ٧٦ — ٧٧ .
(٦) الحيوان ٦/٢٧٩ .
(٧) ابن سلام ص ١١٧ .

وهو يشتهر بإحسانه لوصف الظَّلِيم ونعامته (١) . وممن ذكرهم ابن سلام فى الطبقة الخامسة الأسود بن يعفر النَّهْشَلى التميمى ، ويقول ابن سلام : « له واحدة طويلة رائعة لاحقة بأجود الشعر لو كان شَفَعَها بمثلها قدمناه على مرتبته (٢) » . أما الطبقة السادسة فنظم فيها عمرو بن كلثوم والحارث بن حِلِّزة وعنترة ، وقد عرضنا لهم بالحديث فيما أسلفنا . وجعل الطبقة السابعة لأربعة مقلين هم حُصَين ابن الحُمام المرىّ والمتلمس (خال طرفة) والمسيّب بن عَلَس (خال الأعشى) وسلامة بن جَنْدل السَّعْدى التميمى . أما الطبقة الثامنة فنظم فيها عمرو بن قَميئة (عم طرفة) وعوف بن عطية بن الخَرِع ، وهما مقلان . وجعل فى الطبقة التاسعة الحادرة أو الحويدرة ، وقصيدته (٣) :

بكرتْ سُمَيَّةُ بُكْرَةً فتمتَّعِ   وغَدَتْ غدوّ مفارقٍ لم يَرْبَعِ

من جيد الشعر ومختاره ، وليس له وراءها شعر يذكر . أما الطبقة العاشرة فجميعها مخضرمون أو إسلاميون . وأفرد لأصحاب المراثى فصلا ، ولكنه لم يسلك بينهم جاهليا . وتحدث عقب ذلك عن شعراء القرى العربية ، وأهمهم أمية ابن أبى الصَّلت شاعر الطائف ، ومرَّ بنا فى حديثنا عن أصحاب الديانات كثرةُ ما وضع عليه من أشعار . وفى قبيلة عبد القيس بالبحرين شعر جيد ، وربما كان خير شعرائها المثقِّب العبدى المعاصر للنعمان بن المنذر ، وهو يُسْلك فى المقلين .

وليس وراء هؤلاء الذين ذكرهم ابن سلام شعراء فيهم غَنَاء ، سوى الصعاليك ، وقد أفردناهم بالحديث . ومما لاشك فيه أن الأسطورة تغلب على أخبارهم ، لاندراج كثيرين منهم فى القصص الشعبى ، ويشبههم فى هذا الجانب حاتم الطائى الذى طالما تحدث الرواة عن كرمه . وواضح من ذلك كله أننا لم نتسع فى الترجمة لشعراء الجاهلية ، لقلة ما بأيدينا من شعر وثيق لهم يقفنا على خصائصهم ، ومن ثَمَّ اكتفينا بالترجمة للطبقة الأولى منهم تلك التى عُنِى الرواة بدواوينها وأجمعوا على تقديمها وأنها لا تبارَى فى حسن الديباجة ورونق الكلام .

---

(١) الحيوان ٤/٣٦٦ .
(٢) ابن سلام ص ١٢٣ .
(٣) المفضليات رقم ٨ . يربع بالمكان : يقيم .